الصبر على البلاء

لفضيلة الشيخ الدكتور

عزيز بن فرحان العنزي

-حفظه الله-

الصبر على البلاء

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

يا أيها المؤمنون! لقد بعث الله ﷻ محمدًا ﷺ بالهُدى وبالنور، حتى قام النبي ﷺ بتبليغ دين الله ﷻ، فتمَّت كلمةُ الله، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾[فاطر:٤٣].

وقد نصح النبي ﷺ لهذه الأمة أتمَّ النصح، حتى أكمل الله ﷻ به الدين، وأتمَّ به النعمة؛ قال الحق سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

وقام النبي ﷺ بتعليم الناس أفضل تعليم، وبتوجيههم أفضل توجيه، ومَن لم يشرب مِن وحي محمدٍ ﷺ، فهو في أوديةِ

التيه يهيمُ على وجهه.

نعم عباد الله.

وإنَّ مما جاء به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وعلَّمنا إياه، وأكَّده لنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بالبراهين الساطعة، وبالأدلة الواقعة، وبالعقول الصحيحة حينما حركها نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أنَّ هذه الدنيا ليست بدار مقر، وإنما هي محل لُجْعة، وأنها دار لُقلة، وأنَّ الثاوي فيها راحل، والأيام مراحل، وأنَّ هذه الدنيا إنما هي دار ابتلاءٍ، ودار امتحان.

نعم عباد الله، الدنيا هذه هي دار الأعراض، الدنيا هذه هي دار الابتلاء، وقد تمخَّض هذا الابتلاء من رَحِم المنحة التي منحها الله ﷻ لآدم، حينما أسكنه الجنة، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، قال الله ﷻ: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا﴾ [طه:١٢٣]، فهبط آدم وحواء، وهبط إبليس من أعالي الجِنان، هبطوا إلى دار الأعراض، وإلى دار الابتلاء.

هذه الدنيا ما مِن أحدٍ لديه أدنى مُسكة عقلٍ، إلا وهو يعلم أنَّ هذه الدنيا لا يصفو لها ماءٌ، وأنَّ هذه الدنيا لا يصفو لها هناء، وإنما هي دار أعراضٍ وابتلاء، ودارُ مصائب إن أضحكت يومًا فقد أبكت أيامًا، وإن أفرحت حينًا فقد أحزنت أحيانًا.

هذه الدنيا كم اغتنى فيها مِن فقير، وكم افتقر فيها مِن غنيٍّ، كم صحَّ فيها مِن مريض، وكم مَرِضَ فيها مِن صحيح.

هذه الدنيا كم تقدَّم فيها مِن زَنيم، وتأخر فيها مِن عظيم.

نعم عباد الله، هذه الدنيا لا تصفو لأحدٍ، وإنما دار ابتلاءٍ وتمحيصٍ واختبار، وإذا أردتَّ أن تعرف مقدار قيمة هذه الدنيا، فانظر إلى تقلبها بأهلها، هذه

الدنيا حينما تأتي على الإنسان تذهب سريعًا، ولا أدلَّ على أنَّها دار كدرٍ، ودار تمحيصٍ، أنَّ الإنسان إذا بلغ ذِروة حياته، ودَّع هذه الدنيا.

كُـلُّ ابـن أُنْثَـى وإنْ طَالَـتْ سَـلامَتُهُ يَوْمًـا علـى آلَـةٍ حَـدْبَاء مَحْمُـولُ[١]

عباد الله! هذه الدنيا دارُ ابتلاء، مَن أراد حياةً خاليةً مِن التكدير والتنغيص، فقد تقلَّب أمرًا لا يمكنُ حصوله.

ومُكلـفُّ الأيـام ضـد طِباعهـا متطلـبٌ في المـاء جَـذوة نـارِ[٢]

ما سَلِمَ مِن تنغصيها ولا تكديرها أحدٌ؛ فأنبياء الله وصفوة خَلقه عليهم الصلاة والسلام، قاسوا مِن الدنيا، وعانوا مِن الابتلاءات ما عانوا.

فهذا إبراهيم الخليل بعد ما نَجَى مِن النار العظيمة التي أُوقِدت له، وأُغرِمَت لإحراقه، فنجَّاه الله ﷻ مِن الكرب العظيم، وهُناك هُناك يُبتلى بأمرٍ آخر خطير، حينما يرى في المنام فيقول لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وعَلِمَ الله ﷻ صدقه واليقين، فداه بذبحٍ عظيم، فنادى المُنادي -وإبراهيم بالسلامة والكرامة يُحيَّا- أي يا إبراهيم: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٥].

فداه الله ﷻ بذبحٍ عظيم، فأصبحت سُنةٌ مِن عهد إبراهيم، وقد أحياها أولى الناس بإحيائها خاتم أنبيائه ورسله، محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فأصبحت أضحية تُذبح في كل عامٍ، تحيةً لذي الأسماء الحُسنى، والصفات العُلى.

---

(١) «جمهرة أشعار العرب» (ص: ٦٣٨).

(٢) «دمية القصر وعصرة أهل العصر» (١/ ١٤٠).

وأيوب الذي ضُرب به المثل في الصبر، عانى ما عانى، بَقِيَ ثمانية عشر عامًا، وهو في البلاء المُبين، وفي المرض الشديد، ومع ذلك يعرض نفسه على ربه عرضًا، فيقول: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].

بقيَ ثمانية عشر عامًا، وهو في البلاء، لم يشكو ضُرًّا، ولم يجزع مِن قدرٍ، وإنما راضٍ بقضاء الله، راضٍ بقدر الله وقضائه ﷻ، وهُناك هُناك جاءه الفرج مِن رحم هذا البلاء والمِحنة، ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢]، فأعاده الله ﷻ، وأعاد له الصحة والعافية، ثم أعطاه أهله ومثلهم معهم رحمةً منه ﷻ وتقدَّس.

وهذا موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يُبتلى بلاءً عظيمًا، مِن فرعون، ومِن بني إسرائيل، حتى إن الله ﷻ اختصر لنا صورة الامتحان والبلاء في موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب:٦٩].

آذوْه في كلِّ شيءٍ، ومع ذلك صبر واحتسب في جنب الله.

ولما قيل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ونُقل له مقولةٌ تُضيِّق الصدور، وتبعث الحرج في النفوس، رفع رأسه وقال: «**رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**[(١)]».

وهذا محمدُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قاسى ما قاسى، وعانى ما عانى من المشركين، ومِن سائر مَن حوله مِن العرب، ومِن غير العرب، حتى ثبته الله

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

ﷻ، عانى معاناةً شديدة.

هذه الأمثلة والنماذج أيها المؤمنون، هي نذرٌ يسيرٌ، وغيضٌ مِن فيضٍ، ونقطةٌ مِن بحرٍ عظيمٍ، مما كان عليه الأنبياء، والصالحون، والعلماء، مِن الابتلاء العظيم، فصبروا في جنب الله رب العالمين.

وإنَّ البلاء أيها المؤمنون ليتنوع ويتشكل، ومِصداق ذلك في قول الله ﷻ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

وإنَّ البلاء قد يأتي في صورة نِعمة، فالبلاء لا يأتي في المصائب فقط، وإنما قد يأتي الابتلاء في صورة نِعَم، وفي صورة غنى ومال، قال ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الأعراف:١٦٨]، قال كثيرٌ مِن أهل العلم بالتفسير: ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ يعني: بالنَّعم والخيرات، ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يعني: بالمصائب والأحزان، وقال ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

فكثيرٌ مِن خَلق الله ﷻ ابتلاءاتُه تكون بنعمة الله ﷻ، حينما يُعطى المال فيطغى، ويتكبر ويتجبر، فيمنع حق الله، ويمنع حقَّ خَلق الله ﷻ، فهذا مِن أعظم البلاء، نسأل الله العافية والسلامة.

وأمَّا أنواع الابتلاءات الأخرى، فهي كثيرة:

- منها ما يكون في الأنفس، مِن ذهاب محجوب، فكثيرٌ مِن الناس يفقِدُ محبوبًا له، ولا شك أنَّ هذا نوعٌ مِن أنواع الابتلاء، يصبر الإنسان عليه ويحتسب الأجر مِن الله ﷻ.

- ومنها ذَهاب الأموال، فكثيرٌ مِن الناس أمسى غنيًّا، وأصبح فقيرًا، ولا أدلَّ على ذلك مِن زماننا هذا، بل مِن أيامنا هذه، حينما مرت تلك الأزمة الاقتصادية، على العالم بأسره، فأصبح كثيرٌ مِن أصحاب الملايين، أصبحوا فقراء يتكففون، نسأل الله العافية والسلامة، ولا ريب أنَّ هذا مِن تقدير الله ﷻ، وأنَّ هذا نوعٌ مِن أنواع الابتلاء.

ومِن الناس مَن يكون ابتلاؤه بإخفاقٍ في دراسةٍ، ومنهم مَن بخسارةٍ في تجارة، ومنهم مَن يُبتلى في أسرته، فزوجةٌ لوَّامةٌ، لعَّانةٌ، ساخطةٌ متسخطة -نسأل الله العافية والسلامة- وهو صابرٌ عليها.

ومنهم مَن يُبتلى بأولاده، كثيرٌ من الصالحين الأتقياء الأنقياء، يُبتلوْن بأولادٍ يعقُّونهم، أو بأولادٍ قد تنكَّبوا السبيل، وذهبوا عن طريق الصراط المستقيم إلى طريق الشيطان الرجيم والغاوين، نسأل الله العافية والسلامة.

ومِن الناس مَن يُبتلى بجار السوء، ومنهم مَن يُبتلى بصاحبٍ في وظيفته، يقعُد معه الساعات الطِّوال، وهو بجنبه عينٌ غمَّازة، ونفسٌ همَّازة، لا يرعوي، ولا يتردد عن غيبة الناس، أو عن النميمة، أو غيرها مِن رذائل الأخلاق، وسفاسف الأمور.

نعم عباد الله، إنَّ الابتلاء يتنوع، وإنَّ المصائب تتلون، ولكن المسلم يتسلَّى بما وعد الله ﷻ عليه الصابرين من الأجور، ورفعة الدرجات بإذنه ﷻ؛ قال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ويقول ﷻ عن شأن أهل الجِنان والرضوان، والرَّوْح والرَّيحان، والملائكة يدخلون عليهم مِن كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤].

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم مِن الصابرين المتصبرين، وأن يقيَنا وإياكم شرور أنفسنا والشيطان، إنَّ ربي على كل شيءٍ قدير.

أقولُ ما تسمعون، وأستغفرُ الله لي ولكم، ولسائر المسلمين مِن كل ذنبٍ وخطيئة، و يا فوز المستغفرين، أستغفر الله.

الحمدُ لله على إحسانه، والشكر له على توثيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، الدَّاعي إلى رِضوانه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه، وسلمَّ تسليمًا مزيدًا.

الخطبة الثانية

أمَّا بعدُ:

فيا أيها المؤمنون! إنَّ مما يُفرِّق بين المؤمن والكافر أنَّ المؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، بينما مَن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فتجده شديدَ الجزع، بعيدًا عن رحمة الله ﷻ.

نعم عباد الله، إن أهل الإيمان حينما يُبتلوْن بمرارة القدر، يقابلونه بحلاوة الصبر، فينتُج عن ذلك لذةً، يجدونها في قلوبهم إلى يوم يلقونه، ﷻ وتقدَّس.

وإنَّ مما ينبغي على كل مسلمٍ، أن يوطن نفسه، وأن يتضرع بالصبر والاحتساب، حينما تحدُث له الابتلاءات والمصائب، وينبغي لكل مسلمٍ أن يتدرب على هذه الابتلاءات والمصائب؛ لأن الله تعالى قدَّر وقضى أنه ما مِن أحدٍ مِن خَلقه إلا ويُبتلى، إما بفقد مرغوب، أو بحصول مرهوب، أو بشيءٍ مِن هذه الأمور.

وقد مرَّ على النبي ﷺ أعرابيٌ فسأله: فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْأَسْقَامُ؟ وَاللهِ مَا مَرِضْتُ قَطُّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُمْ عَنَّا، فَلَسْتَ مِنَّا**[(١)]».

فالناس يُبتلوْن في أنفسهم، وفي ذُرياتهم، وفي إخوانهم، وفي أموالهم، بل يُبتلوْن بالغموم والهموم والأحزان، وكل ذلك بقدر الله ﷻ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٧٢٨)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٥٧١).

[الكهف:٤٩]، وكل ذلك بقَدر الله ﷻ، ولن تجد لقَدره محيدًا عن خَلقه ﷻ وتقدَّس.

وإنَّ مِن أعظك ما يتضرع به المسلم، ويتسلى به حال الابتلاء، هو الإيمان بالقدر، والرضا بالقضاء؛ ذلك أنَّ الله ﷻ قدَّر مقادير كل شيء، قبل أن يخلُق السماوات والأرض، بخمسين ألف عام، صحَّ ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا.

إذًا كان الإنسان يؤمنُ بأنَّ الله تعالى قدَّر عليه هذه المصائب، فما عليه إلا أن يقف على قنطرة التسليم لله رب العالمين.

ولذلك صحَّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: يقول لابن عباس -والعبرة لعموم اللفظ، لا بخصوص السبب-: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**[(١)]».

الأمر الثاني: أن يتدرب الإنسان على توقع المفاجآت، ونزول الابتلاءات، وحصول اللأواء والشدائد في هذه الدنيا.

نعم عباد الله، إنَّ كثيرًا مِن العمالقة يتوقعون كل شيء، ولذلك يمتصون الصدمات، حينما تقع بساحتهم، وتحل بدارهم، أمَّا المهزومون، أما

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، والحاكم (٦٣٠٣)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٣٠٢).

المتلوِّمون فهؤلاء في الحقيقة ينهزمون من أول جولة.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**[١]» فهنيئًا لأولئك العملاقة حينما يرضوْن بقدر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وينبغي لكل مسلم أن يتدرب على ذلك، وأن يتوقع كل شيء، وقد ربَّانا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على ذلك، حينما قال: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» **وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**[٢]» وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُدرب أصحابه على ذلك عمليًّا، حينما يبعث أصحابه للغزو، في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، فيضع لهم التوقعات، والافتراضات، إذا مات فلان فالأمير فلان، وإذا مات فلان فالأمير فلان، كل هذا تدريبٌ، وتوطينٌ للنفس على تلقي الصدمات، وحصول الابتلاءات.

الأمر الآخر: ينبغي للمسلم أن يعلم أنَّ الأجر على الصبر، إنما هو عِند الصدمة الأولى، فكثيرٌ مِن الناس لا شك أن المصيبة حينما تقع، أول ما تقع كبيرةً، ثم تصغُر شيئًا فشيئًا.

قال بعض أهل العلم: "كل شيءٍ يبدأ صغيرًا، إلا المصيبة، تبدأ كبيرةً، ثم تصغُر شيئًا فشيئًا" وهذا أمرٌ مُجرب، فالإنسان في أول وهلته حينما يُصدم بخبرٍ ما، أو بأمرٍ ما، تجدُ الأمر عظيمًا في صدره، وهُنا يأتي الإيمان، وهُنا يأتي مراقبة الله الواحد الديَّان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ على امرأةٍ تبكي على قبرٍ لابنٍ لها قد مات، وهي تبكي فقال لها: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»، فقالت: إليكً عني، فإنك لم تُصب بمصابي، فلمَّا ذهب قيل لها: إنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فذهبت إليه فلم تجد عنده بوَّابين، فقالت: يا رسول الله إني لم أعرفك، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**[(١)]».

ولذلك جاء في الحديث القدسي، أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إذا قبض رُوح ابن عبده المؤمن، قال لملائكته: «**مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ**»، يعني قال: "الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون"، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «**ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**[(٢)]».

نعم عباد الله، إن كثيرًا من رقيق الدين، وقليل التقوى، ومخافة الله رب العالمين، بمجرد وقوع مصيبة، تجده يشق ثوبًا، ويلطم خدًّا، ويشد شعرًا، بل منهم مَن يتسخط على قدر الله، ولربما انفلتت من عذبة لسانه لعنات، يوزعها ذات اليمين، وذات الشمال، وهذا يُسخِط الله رب العالمين.

صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه حينما مات ابنه إبراهيم، ذرفت عيناه بالدمع، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٢٥)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٥١)، والترمذي (١٠٢١)، وابن حبان (٢٩٤٨)، وحسنه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب» (٢٠١٢).

قال: «وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا[١]»، الله أكبر.. نعم عباد الله، حينما يُشبَع القلب بالإيمان، يفيض على اللسان شيئًا مِن هذا الرضا، بما قدَّر الله وقضى.

عُروة بن مسعود في لحظةٍ من اللحظات، مات ابنه وهو عند الوليد بن عبد الملك، ثم جاءت الغرغرينة، أو الآتلة، فسَرت في رجله وقدمه، فبُتِرت في لحظة، فقال عروة بن الزبير -ذلك الزاهد العابد- ماذا قال؟

إنها مصيبةٌ جلل، وإنه لأمر عظيم، يفقد أحد أبنائه السبعة، ويذهب أحد أطرافه الأربعة، فيقول بكل رضى وتسليم: "اللهم لقد أعطيتني سبعة بنون، فأخذت واحدًا وأبقيت ستةً، وأعطيتني أطرافًا أربعة، فأخذت واحدًا وأبقيت ثلاثة، اللهم إن كنت عافيتَ فقد أنعمت، وإن كنت أخذت فقد أبقيت"، الله أكبر.

كثيرٌ مِن الناس حينما يخسر في تجارة مثلًا ما، تجد الهموم والغموم والأحزان تضرب عليه بجدرانها الأربعة، شاحب اللون، شعث الشعر، موسوسًا، هائمًا على وجهه في الطرقات، وهو قد أنعم الله ﷻ عليه بنعمٍ عظيمة لا تعد ولا تُحصى.

إذا رأيته وجدته سميعًا، بصيرًا، ناطقًا، متكلمًا، له أطرافٌ أربعة، وقلبٌ حي، وله بدنٌ صاحٍ، وكل هذه لم ينظر إليها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، بل إن أعظم نعمةٍ مِن نِعَم الله ﷻ عليه يوم أن منحه هذا الدين، وهذا الإيمان، والله إن كل نعمةٍ تهون دون نعمة هذا الدين، وهذا الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا لمَنْ يُحِبُّ وَلِمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ** [١]».

أُؤَمِّلُ أنْ أحيا وفي كل ساعةٍ تمرُّ بيَ الموتى تَهُزُّ نُعوشُها
وهلْ أنا إلَّا مِثلُهم غير أنَّ لي بقايا ليالٍ في الزمان أعيشُها [٢]

وإنَّ مما ينبغي أن يتدرب عليه الإنسان، ويتضرع به، ما أعدَّه الله عَزَّ وَجَلَّ للصابرين، مِن الأجور، ورفعة الدرجات، فإذا كان المؤمن يُؤجر على الشوكة يُشاكها في قدمه، فقل لي بربِّك أيها المؤمن، كيف بمَن ابتُليَ في ماله؟ أو في ولده؟ أو في أخيه؟ أو في نفسه؟ أو ابتُليَ بمرضٍ ما، كيف بذاك الرجل؟ ماذا أعد الله عَزَّ وَجَلَّ له من الأجور ورفعة الدرجات؟

لا شك أن الأمر جِدٌّ عظيم.

نعم عباد الله، وإنَّ مما يتدرب عليه الإنسان ألا يسترسل مع الأحزان، قاعدة الشريعة التي لا تنخرم، أنها تنهى عن الحزن الدائم، بل تأمر ببذل الوسائل، وفتح الذرائع، التي تقطع دابر الحزن مطلقًا.

نعم، الحزن غير مأمورٌ به في شريعة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

وإنَّ مما يُبقي الإنسان في دائرة القنوط واليأس، حينما يبقى مسترسلًا مع مُصيبته، ولذلك قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا تستفزوا الأحزان بالدموع"، وإنما على الإنسان أن يتسلى بأمورٍ أخرى، وأن يرضى بما قدر الله عَزَّ وَجَلَّ وقضى.

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، والحاكم (٩٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

(٢) «وفيات الأعيان» (٣/ ٥٥).

وإنَّ مما يهوِّن وطأة المصيبة على النفس أن ينظر الإنسان في مصائب الآخرين، فما مِن أحدٍ إلا وهو مبتلى في هذه الدار، فإذا رأى غيره قد صبر واحتسب، لا شك أنه يتسلى بذلك.

أيها المؤمنون! الحديث ذو شُجون، والجُعبة مَلأى، والوقت قصير، ولكنها عناوين عريضة، أضعها أمامكم، سائلًا الله ﷻ أن ينفعني بها وإياكم، وأن يعيننا وإياكم على تلقي الابتلاءات والمصائب بكل رضا، وبكل إيمانٍ وطمأنينة.